المصدر: اكتوبر
التاريخ : ١٩٩٨/١٢/٢٧

د. «محمود جامع» يتذكر :

رحلة داخل شخصية «السادات» !

□ «السادات» لم يكن موافقا على فصل القضاة.. ولكنه اشترك فى مذبحتهم عام ١٩٦٩!

□ حكاية زيارات «السادات» السرية للسيد البدوى!

الصورة التى يرسمها د. محمود جامع عن السادات تحاول كما قلنا أن تكون موضوعية فتذكر إيجابياته وسلبياته.. وتضع فى نفس الوقت نقاطا كثيرة على الحروف فى مسيرة السادات.. وفى حياته العامة والخاصة.

ومادام الحديث عن الإنسان. فلابد أن تكون هناك نقاط ضعف.. ونقاط قوة وتفوق. ولم يكن «السادات» استثناء من هذه القاعدة. ولكنه كان تأكيدا لها.

ومن المتوقع أن يثير كتاب «عرفت السادات» كثيرا من الاختلاف حول الوقائع التى تحدث عنها «د.جامع». ولكنه يتضمن رؤية جديدة حول رجل كان قريبا من «السادات» على المستوى الشخصى. ويذكر له أن صداقته مع السادات لم تجعله يتستر على عيوبه وأخطائه فهو يذكرها بكل صراحة. ويسجل كذلك اختلافاتهما حول بعض القرارات خاصة قرارات الاعتقالات الشهيرة فى شهر سبتمبر عام ١٩٨١.

والأمثلة فى الكتاب كثيرة عن هذا المنهج بتقديم صورة الشخصية بجانبيها.. وليس بالتركيز على جانب واحد فقط.

فمن الحقائق التى نعرفها أن «السادات» كان رئيسا للجنة التى قامت- فى عهد «عبد الناصر» -بالتوصية بإحالة حوالى ٢٠٠ من خيرة رجال القضاء إلى المعاش. وكان منهم جميع أعضاء مجلس إدارة نادى القضاة فى ذلك الوقت. ثم أصدر «عبد الناصر» بعد ذلك قراره الشهير بعزل جميع قضاة مصر ثم إعادة تعيينهم بعد استبعاد هؤلاء المائتين المحالين للمعاش. بالإضافة إلى نقل غيرهم إلى وظائف مدنية بوزارات الحكومة ومصالحها المختلفة.

وعرفت هذه الواقعة باسم «مذبحة القضاة».. فلما سأل «د. محمود جامع» «السادات» عن أسباب اشتراكه فى اللجنة التى كانت تمهيدا للمذبحة فوجى منه برد غريب لم يتوقعه.

قال له السادات إنه لم يكن يستطيع أن يعترض لا هو ولا غيره رغم أنه لم يكن موافقا على فصل القضاة أبدا ولذلك لم يتردد عندما تولى السلطة فى أن يعيدهم جميعا إلى أعمالهم.

والمعنى هنا أن «السادات» كان يفهم قواعد لعبة السياسة، وكان يدرك أنه ليس اللاعب الرئيسى، وأن عليه أن يؤدى الدور المرسوم له حتى تتاح له فرصة البطولة المطلقة. وفى كثير من خطب «السادات» كنا نسمع اعترافه بأنه مشارك ومسئول عن أخطاء عبد الناصر، وهذا اعتراف صحيح إذا نظرنا إليه من زاوية أن «السادات» كان جزءا من النظام ومدافعا عنه منفذا لأفكاره ومبادئه.

لعبة خطيرة

كان «السادات» يعرف جيدا متاعب السياسة، وقد عانى منها كثيرا قبل الثورة، وقد علمته هذه المتاعب أن يحسب خطواته جيدا، ويبدو أن ذلك هو السبب الرئيسى فى تواجده ليلة الثورة مع زوجته فى إحدى دور العرض لمشاهدة فيلم «ليلة الدخلة» بطولة أنور وجدى وشادية، ويلتمس له د. جامع العذر فى هذه الواقعة التى كثيرا ما هوجم السادات بسببها، فالأمر كما ذكرنا يتعلق بحسابات السياسة ولا يتعلق بوطنية السادات التى لم تكن يوما موضع خلاف وتشكيك.

ويبدو أن «السادات» كان يعرف أنه

يمارس لعبة شديدة الخطورة وهى السياسة التى لم يستطع أبدا أن يبتعد عن ميدانها منذ فجر شبابه. وبسبب خطورة هذه المحنة كان كثيرا ما ينصح ابنه «جمال» بألا يشتغل بالسياسة على الإطلاق، ومازال «جمال» يعمل بنصيحة والده حتى الآن.

ويحكى «د. جامع» قصة أخرى ذات دلالة تؤكد إدراك السادات لخطورة السياسة. فقد حدث أن زار «عبد الناصر» «السادات» فى ميت أبو الكوم. وكان بصحبته الرئيس معمر القذافى. وفوجئ السادات أثناء الزيارة بالسيد عمر المحيشى وزير الصناعة الليبى وعضو مجلس قيادة ثورة الفاتح يتقدم لخطبة ابنته «لبنى». وقوبل هذا الطلب بالرفض التام من «السادات». وقال فيما بعد للدكتور «جامع» مبررا سبب الرفض: «السياسة ليس فيها كبير»!

لقد كان «السادات» بعيد النظر فى هذا القرار العائلى لأن «عمر المحيشى» العريس المرفوض- سرعان ما اختلف مع القذافى، وانتهى الأمر بهروبه ثم استدراجه إلى ليبيا وإعدامه رميا بالرصاص!

هذه حكاية شخصية عن «السادات» ولكنها تكشف فى نفس الوقت عن نظرته للسياسة والسياسيين. ولا ننسى أبدا أن السادات كان يحلم فى شبابه أن يكون ممثلا. وربما لو أتيحت له هذه الفرصة لابتعد تماما عن السياسة التى أودت بحياته فى نهاية المطاف!

ويشير «د. جامع» فى صراحة إلى موقف غريب آخر «للسادات» هو أنه صاحب قرار الإفراج عن «شمس بدران» الذى حكم

عليه بالسجن المؤبد فى قضية عبد الحكيم عامر الشهيرة ولكن «السادات» اتخذ قراره بإطلاق سراحه فى السبعينيات وأمر رئيس الوزراء «ممدوح سالم» بتوصيله إلى الطائرة فى طريقه إلى لندن التى مازال يعيش فيها حتى الآن!

وغرابة هذا القرار ترجع إلى أن «السادات كان يعرف تماما التجاوزات التى ارتكبها شمس بدران. وقال السادات ذات مرة للدكتور «جامع» إن «بدران» كان يحتفظ خلف مكتبه بخزينة حديدية مملوءة بجميع أنواع العملات. فلما دخل عليه أحد الضباط شاكيا من ضيق حالته المادية. قال له «بدارن»: افتح الخزينة التى ورائى وخذ منها عشرين ألف جنيه تفك بها أزمتك مؤقتا. وأخذ الضابط المبلغ دون إمضاء أو إيصال!!

لماذا إذن سمح «السادات» لـ «بدارن» أن يسافر إلى لندن بجواز سفر ديبلوماسى؟!

يقول «د. جامع» دون مواربة إن «السادات» أراد أن يتخلص منه لأنه وجده قد فقد كل شىء وسجن ومن الممكن أن يتكلم أو ينبش الماضى فى أى وقت وبأى وسيلة. وقد يكون سبب الإفراج أن بدران كان يسبب قلقا دائما «للسادات» الذى كان يريد أن يتفرغ لمشاكل الحكم دون عكننة!

قد تكون اجتهادات «د. جامع» صادقة وقد لا تكون، ولكن واقعة إفراج «السادات» عن «شمس بدران» مازالت تحتاج إلى تفسير. ولا يمكن- برأيى- التماس هذا التفسير إلا بالاستماع لرواية كل الأطراف. وما أقل الروايات الصادقة والوثائق القاطعة عن تاريخنا القريب المثير للجدل!

أغرب قرار

وفى مقابل حكاية «شمس بدران» يؤكد «د.جامع» أن «السادات» أصدر أمرا باعتقال شقيقه الأكبر الحاج «طلعت السادات» فى عام ١٩٧١، وظل- بالفعل- فى السجن لمدة ٧ شهور كاملة!

وحكاية الاعتقال- كما يرويها- بدأت

عندما ذهب شقيق السادات لاستقبال صديق قادم من الخارج، واستغل قرابته للرئيس لتسهيل خروج صديقه الذى كانت أجهزة الأمن تعرف أنه يحمل معه أشياء ممنوعة، فلما عرف ممدوح سالم ذلك أفهم الحاج طلعت حقيقة صديقه، ولم يتردد شقيق السادات فى الابتعاد عن الموضوع بأكمله لتتصرف أجهزة الأمن بحرية مع صديقه مادام أنه يحمل معه ممنوعات.

ولكن «السادات» لم يتسامح، فعندما علم بالواقعة أمر فوراً باعتقال شقيقه، وذكر فيما بعد فى مجلس الشعب- أنه لم يعتقل أحداً، حتى ذلك الوقت- سوى شقيقه الأكبر!

ويدافع «د. جامع» مرة أخرى عن «السادات» فيما يتعلق بما تردد عن تأثير زوجته السيدة «جيهان السادات» على قراراته، ويقول بوضوح إنه ليس صحيحا أبدا كانت تصدر قرارات وتلغى قرارات، فى ظل «السادات» فلاحا كما هو حتى بعد أن أصبح رئيسا للجمهورية، ولذلك كان

يرفض مطلقاً أن تتدخل زوجته أو أن تفرض عليه رأيا لا يقبله، وكان قرار السادات دائما من دماغه، وربما كان حب السيدة جيهان لحضور الاحتفالات وشغفها بالظهور من أسباب رسوخ الاعتقاد باشتراكها فى إدارة شئون الحكم، وهو الأمر الذى ينفيه «د. جامع» بشدة.

ومسألة ارتباط «السادات» بحياة

الفلاحين معروفة للجميع، ولكن «د. جامع» يروى وقائع طريفة للغاية تجعلنا نصدق حلم «السادات» الذى ذكره أكثر من مرة بأن يعيش فى قريته إلى الأبد بعيداً عن المدينة وهموم الحكم والسياسة، وربما كان السادات يجد فى قريته ما يغسل عنه هموم السلطة وصراعاتها، ويعيد إليه الصفاء الداخلى الذى عرفه لأول مرة فى السجن!

داخل بيت أبو الكوم كان «السادات» يمارس حياة الفلاح بأصلها، وربما كان يحس بأنه كبير هذه العائلة الصغيرة، وفى إحدى المرات جلس السادات فى منزله ليقوم بالصلح بين سيدة وحماتها لخلافهما على نصف جاموسة، ولما طلب منه «د. جامع» أن يترك له حل هذه المشكلة حرصاً على وقته قال له السادات يا محمود إننى أريد أن أسعد أسرة!

وفى إحدى المرات طلب «السادات» أن يركب حماراً ليجوب به شوارع «ميت أبو الكوم»، وكان وقتها فى قمة سعادته!

ولم ينقطع «السادات» عن طقوسه التى تعود عليها حتى بعد أن أصبح رئيساً للجمهورية، فقد كان يحرص على زيارة السيد البدوى سراً مع د. جامع وبدون حراس، كما كان يطلب منه إحضار الشيخ سيد النقشبندى من طنطا إلى ميت أبو الكوم لينشد له التراتيل الدينية والقصائد المختلفة فى مدح الرسول!

نظرية الجوكر

وفى الوقت الذى يوحى فيه هذا الجانب الطريف ببساطة السادات المطلقة، فإن هذه الشخصية نفسها عركتها تجارب السياسة وتجاربها وصراعاتها فأصبحت شخصية شديدة التركيب والتعقيد رغم بساطتها الواضحة، ولذلك لم يكن غريباً أن يكرر معظم الذين عدلوا مع «السادات» أنه كان رجلا من الصعب التنبؤ بقراراته.

خذ مثلا- نظريته الغريبة التى أدار بها دفة الحكم، فقد كان يقول للدكتور «جامع» ان جميع من حوله يكرهون بعضهم ويتصارعون، ولم يكن ذلك موضع غضب السادات، بل على العكس فقد كان ذلك يجعله مثل الجوكر، ويتيح له أن يتفرج على الجميع ويسيطر عليهم، وقد تعلم أهمية ألا يتفق من حوله من تجربة عبد الناصر الذى كان كل أعوانه متحدين معا، وانتهى الأمر بظهور مراكز قوى تضغط عليه هو نفسه خاصة بعد انهياره النفسى والصحى فى آخر أيامه!

نظرية «السادات» تلك- على غرابتها- لا يمكن أن تصدر عن شخصية بسيطة، ولكنها نتاج الجانب المركب فى طبيعته الذى اكتسب معظم خبراته من الواقع مباشرة.

ويبقى فى النهاية سؤال يفرض نفسه هو: هل تغيرت شخصية «السادات» بعد مبادرة السلام التى جعلت منه زعيما أسطوريا يقوم الأمريكيون بتعليق صوره داخل منازلهم؟ وهل كان لهذا التغيير الأثر الأكبر وراء قرارات متسرعة اتخذها فى أيامه الأخيرة؟

الإجابة هى نعم، ويفسر د. جامع ذلك بقوله إن تحول السادات إلى بطل أسطورى فى نظر العالم أعطاه ثقة كبيرة فى نفسه إلى درجة الغرور، ولذلك بدأ فى عدم قبول أى مشورة من المحيطين به، وكان د. جامع يحس أن السادات قد بدأ ينظر إلى الجميع من أعلى، وكان يفكر فى آخر أيامه أن يلبس زيا فرعونيا ويركب مركبة فرعونية تسير به فى شارع الهرم حتى الأهرامات وأبو الهول فى مهرجان شعبى كبير (..).

أصبح السادات فى أيامه الأخيرة متوترا وعصبيا وحاد المزاج، وقد لمس الجميع ذلك فى مؤتمره الصحفى الأخير الذى عقده بعد

إعلان قرارات سبتمبر، ويؤكد د. جامع أن السادات رفض نصيحته فيما يتعلق بخطأ تلك القرارات، وأنه ثار عليه ثورة عارمة وتركه بمفرده في حديقة المنزل.

لقد نجح السادات كثيراً بهدوء أعصابه في التغلب على أزمات ضخمة واجهتها مصر في سنوات حكمه، ولكن يبدو أن العاصفة الأخيرة كانت أقوى منه، ورغم الاتفاق على أن قراراته الأخيرة بسجن معارضيه كانت خاطئة بكل المقاييس الأخلاقية والسياسية، فإن ذلك لا ينفي عبقرية الكثير من قراراته التي تبدو الآن- بعد كل هذه السنوات- كما لو كانت مواجهة أسطورية للمستحيل نفسه.

وفي التحليل الأخير يبدو من المهم أن نتحرى نفس منهج كتاب «عرفت السادات» عند تقييم زعمائنا الراحلين، فالواقع أنه لا توجد آلهة تمشي على الأرض، ولا يوجد زعيم منزه عن الخطأ، ولكن ذلك لا يعني- في نفس الوقت- أن نلغي الأخطاء القليلة قائمة الإنجازات والنجاحات الضخمة، ففي حكم الله أن تذهب الحسنات السيئات، ويجب أن يكون الأمر كذلك في حكم البشر!

محمود عبد الشكور